شرح الأربعين النووية

الحديث العشرون

إِذا لَم تَستَحْيِ فاصْنَعْ مَا شِئتَ

اللقاء الثالث والعشرون

الحديث العشرون:

عَنْ أَبِيْ مَسْعُوْدٍ عُقبَة بنِ عَمْرٍو الأَنْصَارِيّ البَدْرِيّ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُوْلُ اللهِ صلى الله عليه وسلم (إِنَّ مِمَّا أَدرَكَ النَاسُ مِن كَلاَمِ النُّبُوَّةِ الأُولَى إِذا لَم تَستَحْيِ فاصْنَعْ مَا شِئتَ) رواه البخاري.

ترجمة الراوي:

هو عقبة بن عمرو بن ثعلبة بن أسيرة بن عسيرة بن عطية، أبو مسعود البدري، وهو مشهور بكنيته، ولم يشهد بدرًا وإنما نُسب إليها؛ لأنه سكنها، ونزل الكوفة وابتنى بها دارًا واستخلفه عليٌّ عليها، وشهد العقبة الثانية، وكان أحدث من شهدها سنًّا، وشهد أحدًا وما بعدها من المشاهد، وتوفي بالمدينة سنة (41هـ).

قال بشير بن عمرو: قلنا لأبي مسعود: أوصنا، قال: عليكم بالجماعة؛ فإن الله لن يجمع الأمة على ضلالة، حتى يستريح بر، أو يستراح من فاجر.

منزلة الحديث:

هذا الحديث حديث عظيم، عليه مدار الإسلام، وأصول الأخلاق، بقول فصيح وجيز، يعد من جوامع كلمه عليه الصلاة والسلام. "الجواهر اللؤلؤية شرح الأربعين النووية"

قال ابن العطار رحمه الله: هذا الحديث أصل كبير لمن تأمل معناه، وتدبره وعمل به، وهو من كلام النبوة الأولى، من الحكم المتقدمة على ألسنة الأنبياء المتقدمين، وهو يجمع خيرًا كثيرًا.

شرح الحديث:

((إِنَّ مِمَّا أَدرَكَ النَاسُ مِن كَلاَمِ النُّبُوَّةِ الأُولَى)):

قال ابن حجر: أي مما بلغ الناس من كلام النبوة، مما اتفق عليه الأنبياء؛ أي: إنه مما ندب إليه الأنبياء، ولم ينسخ فيما نسخ من شرائعهم؛ لأنه أطبقت عليه العقول، ... ((النُّبُوَّةِ الأُولَى))؛ أي: التي قبل نبينا -ﷺ-.

قال ابن رجب: يشير إلى أن هذا مأثور عن الأنبياء المتقدمين، وأن الناس تداولوه بينهم، وتوارثوه عنهم قرنًا بعد قرن، وهذا يدل على أن النبوة المتقدمة جاءت بهذا الكلام، وأنه اشتهر بين الناس، حتى وصل إلى أول هذه الأمة.

((إِذا لَم تَستَحْيِ فاصْنَعْ مَا شِئتَ)):

أورد أهل العلم معنيين: لقوله -ﷺ-: ((إِذا لَم تَستَحْيِ فاصْنَعْ مَا شِئتَ))؛ أحدهما: أنه أمر بمعنى التهديد والوعيد، ❶والمراد: إذا لم يكن حياء، فاعمل ما شئت، فإن الله يجازيك على ما صنعت.

❷والآخر: أنه أمر بمعنى الخبر، والمراد: أن من لم يستحي صنع ما شاء؛ فإن المانع من فعل القبائح هو الحياء، فمن لم يكن له حياءٌ، انهمك في كل فحشاء ومنكر. (لا دين يردع ولا خلق يمنع).

إذا لم تصُنْ عِرْضًا ولم تخشَ خالقًا وتستحي مخلوقًا فما شئتَ فاصنَعِ

الحياء خلق رفيع، يحمل صاحبه على تجنب القبائح والرذائل، ويأخذ بيده إلى فعل المحاسن والفضائل، وهو زينة النفس وتاج الأخلاق، وهو البرهان الساطع على عفة صاحبه.

❍الحياء: هو أن تخجل النفس من العيب والخطأ.

ويجب التفريق بين خجل النفس من العيب والخطأ وهذا الحياء وهو ممدوح، وبين خجلها من الحق والصواب وهذا ضعف وهو مذموم.

الحياء الحقيقي لا يمنع من الأمر بالمعروف، ولا النهي عن المنكر، لذلك فرق العلماء بين الحياء والخجل؛ الحياء فضيلة والخجل ضعف النفس، الحياء شعور نابع من الإحساس برفعة وقوّة وعظمة النفس، الخجل سببه نقصاً في شخصية الإنسان.

الحياء خيرٌ كلُّه، وكلُّه خير، ولا يأتي إلاَّ بخير، هو خُلق من أخْلاق الملائكة، وسمة من سمات أنبياء الله المخلَصين، خُلق من أسمى الصِّفات الإنسانيَّة وألطفِها، وأنْبلِ الأخلاق الإسلاميَّة وأشرفِها، وإذا رأينا الرَّجل يَخْتنِق وجهُه، وتعلو وجنتيه الحمرةُ، فيتحرَّج عن فعل ما لا ينبغي له فعلُه، فاعلم أنَّه يَحمل بين جنبيْه شمعةَ الإيمان، وحياة الضَّمير، ونقاوة المعْدن، وسلامةَ الفطرة.

الحياء تاج الأخلاق، وعنوان العفاف، ورمْز الوقار، يزيد الرُّجولةَ كمالاً، ويكسو المروءة جمالاً.

وإذا رُزِق العبد حياءً لازمتْه السُّمعة الطَّيِّبة، والذِّكرُ الحسن، فنُشرتْ مَحاسنه، ونُسيت مساوئه، وقديمًا قيل: "من كساه الحياء ثوبه، لم يَرَ الناسُ عَيْبه".

هذا الخلق توارثَتْه النَّاس من أنبيائهم؛ فـ "إنَّ ممَّا أدرك النَّاس من كلام النبوَّة الأولى: إذا لَم تستح فاصنعْ ما شئت".

وتناقلتِ الخليقة من كتب الحكمة الأولى: "إنَّ من الحياء وقارًا، وإنَّ من الحياء سكينة".

وعرفت العرب في جاهليَّتها هذا الخلق، فكانوا ذوي مُروءة واستحياء، فهذا عنترة بن شداد، يغضُّ طرفه عن جارته حياءً، ويقول مفاخرًا:

وَأَغُضُّ طَرْفِي إِنْ بَدَتْ لِي جَارَتِي *** حَتَّى يُوَارِيَ جَارَتِي مَأْوَاهَا

وهذا أبو سفيان قبْل إسلامه يسأله هرقل ملك الروم عن النَّبي -ﷺ-، فأجابه بما علم من حال النَّبي -ﷺ- وقال: "فو الله لولا الحياءُ من أن يأثروا عليَّ كذبًا، لكذبت عليه".

ثمَّ جاء الإسلام، فأمر بالحياء وحثَّ عليه، وحضَّ الناس على لزومه والتخلُّق به، جاء في الحديث الصحيح: أنَّ النَّبيَّ -ﷺ- قال: " ما كانَ الفُحشُ في شيءٍ إلَّا شانَهُ، وما كانَ الحياءُ في شيءٍ إلَّا زانَهُ ". أخرجه الترمذي وغيره.

"ما كان الفُحْشُ" هو كلُّ بَذيءٍ مِن القوْلِ والفعلِ، والمَعنى: لا يدخُلُ الفُحْشُ "في شَيءٍ"، أي: في أمْرٍ أو أخلاقٍ أو كلامٍ، "إلَّا شانَه"، أي: عابَه وأنقَصه، وأصبَح مَذمومًا قبيحًا، "وما كان الحَياءُ"؛ وهو مَعالي الأخلاقِ وفَضائلُها، والمعنى: لا يدخُلُ الحياءُ "في شيءٍ"، أي: في أمرٍ أو أخلاقٍ أو كلامٍ، "إلَّا زانَه"، أي: إلَّا أكمَلَه وزيَّنه، وأصبحَ ممدوحًا مَحمودًا. الدرر السنية

لقد كانت الدعوة إلى مكارم الأخلاق من أهم مقاصد بعثة النبي -ﷺ-؛ ففي مسند الإمام أحمد بسند صحيح قال رسول الله -ﷺ-: "إِنَّمَا بُعِثْتُ لِأُتَمِّمَ صَالِحَ الْأَخْلَاقِ"، وحُسْن الخلق والإيمان متلازمان؛ فعن أبي هريرة -رضي الله عنه- قال: قال رسول الله -ﷺ-: "أَكْمَلُ الْمُؤْمِنِينَ إِيمَانًا أَحْسَنُهُمْ خُلُقًا" (رواه أبو داود في سننه بسند صحيح)؛ فالإيمان يَعْظُم ويَكْمُل بِحُسْن الأخلاق وكماله.

وحُسْن الخلق يثقِّل الموازين، ويزيد في إيمان العبد حتى يصل إلى مراتب الكمال، ومن الأخلاق الفاضلة التي قُرِنَتْ بالإيمان خُلُق الحياء، فإذا رُفِعَ الحياء عن الإنسان نقص من إيمانه بقدر ذلك، ففي مستدرك الحاكم بسند صحيح، عن ابن عمر -رضي الله عنهما- قال: قال النبي -ﷺ-: "الْحَيَاءُ وَالْإِيمَانُ قُرِنَا جَمِيعًا فَإِذَا رُفِعَ أَحَدُهُمَا رُفِعَ الْآخَرُ"، فإذا وُجِدَ الحياء وُجِدَ الإيمان، وإذا ضاعَ الحياءُ فلا يُنتفَعُ بالإيمان.

وبيَّن -ﷺ- مزيةَ للحياء على سائر الأخلاق أنه شعار للإسلام فقال: "إِنَّ لِكُلِّ دِينٍ خُلُقًا، وَخُلُقُ الْإِسْلَامِ الْحَيَاءُ" (رواه ابن ماجه بسند حَسَن).

"ومرَّ النَّبي -ﷺ- علَى رَجُلٍ مِنَ الأنْصارِ، وهو يَعِظُ أخَاهُ في الحَيَاءِ، فَقالَ رَسولُ اللَّهِ -ﷺ-: دَعْهُ فإنَّ الحَيَاءَ مِنَ الإيمَانِ" صحيح البخاري.

يَنصَحُه أنْ يُخفِّفَ مِن حَيائِه؛ وذلك أنَّ الرَّجلَ كان كثيرَ الحياءِ، وكان ذلك يَمنَعُه مِن استِيفاءِ حُقوقِه، فعاتَبَه أخوهُ على ذلك، فأمَرَه رسولُ اللهِ -ﷺ- أنْ يَترُكَه على هذا الخُلُقِ الحسَنِ، وأخبَرَه أنَّ الحَياءَ مِن الإيمانِ. الدرر السنية

قال ابن القيم -رحمه الله-: "الحياء أصل لكل خير، وهو أفضل وأَجَلّ الأخلاق، وأعظمها قَدْرًا، وأكثرها نفعًا، ولولا هذا الخلق لم يُوفَ بالوعد، ولم تُؤَدَّ الأمانةُ، ولم تُقْضَ لأحد حاجة، ولا تحرَّى الرجل الجميل فآثره، والقبيح فتجنبه، ولا سُتِرَ له عورة، ولا امتنع عن فاحشة، وكثير من الناس لولا الحياء الذي فيه لم يؤدّ شيئا من الأمور المفترَضة عليه، ولم يَرْعَ لمخلوق حقًّا، ولم يَصِلْ له رَحِمًا، ولا بر له والدا" انتهى كلامه -رحمه الله-.

والحياء هو خلق الأنبياء والمرسلين ومن سار على نهجهم من الصحابة والتابعين، فهذا موسى -عليه السلام- قال عنه النبي -ﷺ-: "إِنَّ مُوسَى كَانَ رَجُلًا حَيِيًّا سِتِّيرًا، لَا يُرَى مِنْ جِلْدِهِ شَيْءٌ اسْتِحْيَاءً مِنْهُ" (رواه البخاري).

فمدح نبيُّنا -ﷺ- موسى -عليْه السَّلام- بأنه كان رجلاً حييًّا ستِّيرًا.

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ . ﷺ-: " إِنَّ مُوسَى كانَ رَجُلًا حَيِيًّا سِتِّيرًا، لا يُرَى مِن جِلْدِهِ شَيءٌ اسْتِحْيَاءً منه، فَآذَاهُ مَن آذَاهُ مِن بَنِي إسْرَائِيلَ، فقالوا: ما يَسْتَتِرُ هذا التَّسَتُّرَ إلَّا مِن عَيْبٍ بجِلْدِهِ: إمَّا بَرَصٌ، وإمَّا أُدْرَةٌ، وإمَّا آفَةٌ. وإنَّ اللَّهَ أرَادَ أنْ يُبَرِّئَهُ ممَّا قالوا لِمُوسَى، فَخَلَا يَوْمًا وحْدَهُ، فَوَضَعَ ثِيَابَهُ علَى الحَجَرِ، ثُمَّ اغْتَسَلَ، فَلَمَّا فَرَغَ أقْبَلَ إلى ثِيَابِهِ لِيَأْخُذَهَا، وإنَّ الحَجَرَ عَدَا بثَوْبِهِ، فأخَذَ مُوسَى عَصَاهُ وطَلَبَ الحَجَرَ، فَجَعَلَ يقولُ: ثَوْبِي حَجَرُ، ثَوْبِي حَجَرُ، حتَّى انْتَهَى إلى مَلَإٍ مِن بَنِي إسْرَائِيلَ، فَرَأَوْهُ عُرْيَانًا أحْسَنَ ما خَلَقَ اللَّهُ، وأَبْرَأَهُ ممَّا يقولونَ فَذَلِكَ قَوْلُهُ (يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَكُونُوا كَالَّذِينَ آذَوْا مُوسَى فَبَرَّأَهُ اللَّهُ مِمَّا قَالُوا وَكَانَ عِنْدَ اللَّهِ وَجِيهًا) [الأحزاب: 69].

صحيح البخاري

وأما نبينا -ﷺ- فقد تسنَّم أعلى مقامات الحياء؛ فعن أبي سعيد الخدري -رضي الله عنه- قال: ""كانَ النَّبيُّ ﷺ- أشَدَّ حَيَاءً مِنَ العَذْرَاءِ في خِدْرِهَا، وإذَا كَرِهَ شيئًا عُرِفَ في وجْهِهِ" صحيح البخاري؛ أي: إذا كَرِهَ شيئًا لا يتكلم به لحيائه، بل يتغير وجهه، فيفهم الصحابة كراهته لذلك.

وفي الصحيحين عَنْ عَائِشَةَ قَالَتْ: سَأَلَتِ امْرَأَةٌ النَّبِيَّ -ﷺ- كَيْفَ تَغْتَسِلُ مِنْ حَيْضَتِهَا؟ قَالَ: فَذَكَرَتْ أَنَّهُ عَلَّمَهَا كَيْفَ تَغْتَسِلُ، ثُمَّ تَأْخُذُ فِرْصَةً مِنْ مِسْكٍ تَتَطَهَّرُ بِهَا، قَالَتْ الْمَرْأَةُ: كَيْفَ أَتَطَهَّرُ

بِهَا؟ فاستحيا النبي -ﷺ- وأعرض بوجهه وقال: "تَطَهَّرِي بِهَا سُبْحَانَ اللهِ" قَالَتْ عَائِشَةُ -رضي الله عنها-: فأخذتُها فَجَذَبْتُهَا فأخبرتها بما يريد النَّبِيُّ -ﷺ- ".

وكان -ﷺ-يتحرج بأن يُشْعِرَ زوارَه والمستأنسينَ بمجلسه بأنهم قد طال جلوسُهم عنده وحديثهم في بيته، فأنزل الله -تبارك وتعالى-: (فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَانْتَشِرُوا وَلَا مُسْتَأْنِسِينَ لِحَدِيثٍ إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ يُؤْذِي النَّبِيَّ فَيَسْتَحْيِي مِنْكُمْ) [الْأَحْزَاب: 53].

هذا الخلق النبوي والحياء المحمَّدي انعكس أثره على صحابته -رضي الله عنهم-؛ فهذا عثمان -رضي الله عنه- بلغ من حيائه أنَّه ما كان يتعرَّى حتَّى في حال اغتساله، حتَّى استحتْ من حيائه الملائكة، كما أخبر عنْه النَّبي -ﷺ-.

وقد ذُكر حياء الملائكة من عثمان -رضي الله عنه- بالحديث الثابت عن عائشة أمّ المؤمنين -رضيَ الله عنها- قالت: "كانَ رَسولُ اللهِ -ﷺ- مُضْطَجِعًا في بَيْتِي، كَاشِفًا عن فَخِذَيْهِ، أَوْ سَاقَيْهِ، فَاسْتَأْذَنَ أَبُو بَكْرٍ فأذِنَ له، وهو علَى تِلكَ الحَالِ، فَتَحَدَّثَ، ثُمَّ اسْتَأْذَنَ عُمَرُ، فأذِنَ له، وَهو كَذلكَ، فَتَحَدَّثَ، ثُمَّ اسْتَأْذَنَ عُثْمَانُ، فَجَلَسَ رَسولُ اللهِ -ﷺ-، وَسَوَّى ثِيَابَهُ، قالَ مُحَمَّدٌ: وَلَا أَقُولُ ذلكَ في يَومٍ وَاحِدٍ، فَدَخَلَ فَتَحَدَّثَ، فَلَمَّا خَرَجَ قالَتْ عَائِشَةُ: دَخَلَ أَبُو بَكْرٍ فَلَمْ تَهْتَشَّ له وَلَمْ تُبَالِهِ، ثُمَّ دَخَلَ عُمَرُ فَلَمْ تَهْتَشَّ له وَلَمْ تُبَالِهِ، ثُمَّ دَخَلَ عُثْمَانُ فَجَلَسْتَ وَسَوَّيْتَ ثِيَابَكَ فَقالَ: أَلَا أَسْتَحِي مِن رَجُلٍ تَسْتَحِي منه المَلَائِكَةُ" رواه مسلم

ومن يضرب بحيائها المثل أمّنا أمّ المؤمنين عائشة -رضي الله عنها- حين قالت: "كنتُ أدخل بيتي الذي دفن فيه رسولُ الله -ﷺ- وأبي، فأضع ثيابي فأقول: إنَّما هو زوْجي وأبِي، فلمَّا دُفِن عمر -رضي الله عنه- فوالله ما دخلت إلاَّ وأنا مشدودةٌ عليَّ ثيابي؛ حياءً من عمر".

وفي محكم التَّنزيل، قصَّ علينا ربُّنا خبر تلك المرأة الصَّالحة مع نبي الله موسى -عليه السلام- التي مشت إليْه بخطوات، لا إغواء فيها ولا إغراء، وحادثتْه بكلمات معدودات، لا خضوع فيها ولا تميُّع؛ قال تعالى: (فَجَاءَتْهُ إِحْدَاهُمَا تَمْشِي عَلَى اسْتِحْيَاءٍ قَالَتْ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا) [القصص:25].

لم تأت تمشي مشية تتبختر فيها تلقي عنها جلباب الحياء، لم تأت نازعة ستر الله -تبارك وتعالى-، وإنما جاءت محتشمة، حتى أن بعضهم قال: إنها كانت تمشي خلفه، وهو يمشي أمامها، وإذا أرادت منه أن يتجه يمنة أو يسرة ألقت حجراً بالاتجاه الذي تريد منه أن يتجه إليه؛ كل ذلك حياء وحشمة وتستر من هذه المرأة المؤمنة.

وكانت فاطمة رضي الله عنها تستحي أن تُشَيَّع إلى قبرها بعد موتها فوق خشبةٍ لا جوانب لها، فلا يُسْتَرُ حجمُ الجسم عن المشَيِّعين، فقالت لأسماء بنت عميس: «إِنِّي قد اسْتَقْبَحْتُ ما يُصْنَعُ بالنساء؛ إنه يُطْرَحُ على المرأة الثوب فيَصِفُها، فقالت أسماء: يا بنتَ رسول الله -ﷺ-! أَلَا أُرِيكِ شيئاً رَأَيْتُهُ بأرض الحبشة؟ فَدَعَتْ بِجَرَائِدَ رَطْبَةٍ فَحَنَّتْهَا، ثم طرحت عليها ثوباً، فقالت فاطمة

رضي الله عنها: ما أحسن هذا وأجمله! تُعرف به المرأة من الرجال»، فلما تُوفيت فاطمة وضعوها في نعش مُغَطًّى من جوانبه يشبه الهودج كي يسترها، فكانت أول مَن صُنِع نَعْشُهَا من النساء في الإسلام على تلك الصِّفَةِ.

وقصة المرأة السوداء، التي بشر النبي -ﷺ- أنها من أهل الجنة، عن عطاء بن أبي رباح قال "قَالَ لي ابنُ عَبَّاسٍ: أَلَا أُرِيكَ امْرَأَةً مِن أَهْلِ الجَنَّةِ؟ قُلتُ: بَلَى، قَالَ: هذِه المَرْأَةُ السَّوْدَاءُ؛ أَتَتِ النَّبيَّ -ﷺ- فَقالَتْ: إنِّي أُصْرَعُ، وإنِّي أَتَكَشَّفُ، فَادْعُ اللَّهَ لِي، قَالَ: إنْ شِئْتِ صَبَرْتِ ولَكِ الجَنَّةُ، وإنْ شِئْتِ دَعَوْتُ اللَّهَ أَنْ يُعَافِيَكِ، فَقَالَتْ: أَصْبِرُ، فَقَالَتْ: إنِّي أَتَكَشَّفُ، فَادْعُ اللَّهَ لي أَلَّا أَتَكَشَّفَ، فَدَعَا لَهَا". صحيح البخاري

فاختارتِ الصَّبْرَ على المرضِ رَجاءَ الجنَّة، ولكنَّها طلَبَتْ منه -ﷺ-أَنْ يَدْعوَ لها ألَّا تَتكشَّفَ؛ حِفاظًا على جَسدِها وعَورتِها من الظُّهورِ أمامَ النَّاس وهي لا تدري، فدَعا لها النَّبيُّ -ﷺ- ألَّا تَتكشَّفَ أثناءَ صَرَعِها. الدرر السنية

بل إن الله مدح به الحور العين، قال الله عز وجل (فِيهِنَّ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ ...) (حُورٌ مَقْصُورَاتٌ فِي الْخِيَامِ) قال مجاهد: قَصرْن أنفسَهنّ وأبصارهنّ على أزواجهنّ، فلا يردن غيرهم، وعن قتادة (قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ)، وهنّ النساء اللاتي قد قُصِرَ طرفهنّ على أزواجهنّ، فلا ينظرن إلى غيرهم من الرجال، وهذا من كمال الحياء.

والحياء فوق ذلك كله، هو صفة للرَّبّ -جل جلاله- وتقدست أسماؤه، وحياء الرب -تبارك وتعالى- حياءُ جُودٍ وكرمٍ، وبرّ وجلال، كما في الحديث المشهور: " إنَّ ربَّكم حيِيٌّ كريمٌ يستحيي من عبدِه أن يرفعَ إليه يدَيْه فيرُدَّهما صِفرًا أو قال خائبتَيْنِ" صحيح ابن ماجه، وفي الأثر يقول الرب -جل جلاله-: "مَا أَنْصَفَنِي عَبْدِي؛ يَدْعُونِي فَأَسْتَحْيِي أَنْ أَرُدَّهُ وَيَعْصِينِي وَلَا يَسْتَحْيِي مِنِّي".

حَياؤُه تعالى على الوصْفِ الذي يَليقُ بكَمالِه وجلالِه؛ فليس كحَياءِ المخلوقين، الَّذي هو تَغيُّرٌ وانكِسارٌ يَعترِي الشَّخصَ عندَ خوفِ ما يُعابُ أو يُذَمُّ، بل هو تَرْكُ ما لا يتَناسَبُ مع سَعةِ رحمتِه وكمالِ جُودِه وكَرمِه وعَظيمِ عَفْوِه وحِلْمِه.

وأعلى منازل الحياء، وأجلّ صورِه، أن يستحييَ العبد من ربّه تعالى، أن يستحيي العبدُ من ربِّه حقَّ الحياء، ففي معجم الطبراني أن رجلا قال للنبي -ﷺ-: "أَوْصِنِي. قَالَ: أُوصِيكَ أَنْ تَسْتَحْيِيَ مِنَ اللَّهِ كَمَا تَسْتَحْيِي رَجُلًا صَالِحًا مِنْ قَوْمِكَ"، وفي جامع الترمذي بسند حسن عن عبد الله بن مسعود -رضي الله عنه- قال: قال رسول الله -ﷺ-: "اسْتَحْيُوا مِنَ اللَّهِ حَقَّ الْحَيَاءِ". قَالُوا: إِنَّا لَنَسْتَحْيِي مِنَ اللَّهِ يَا رَسُولَ اللَّهِ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ، قَالَ: "لَيْسَ ذَاكَ، وَلَكِنْ مَنِ اسْتَحْيَا مِنَ اللَّهِ حَقَّ الْحَيَاءِ فَلْيَحْفَظِ الرَّأْسَ وَمَا وَعَى، وَلْيَحْفَظِ الْبَطْنَ وَمَا حَوَى، وَلْيَذْكُرِ الْمَوْتَ وَالْبِلَى، وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ تَرَكَ زِينَةَ الدُّنْيَا، فَمَنْ فَعَلَ ذَلِكَ فَقَدِ اسْتَحْيَا مِنَ اللَّهِ حَقَّ الْحَيَاءِ".

فبيَّن -ﷺ-في هذا الحديث العظيم أمورا أربعة فيها جِمَاع الخير كله: أن تحفظ الرأس وما وعى، فلا تسجد لغير الله ولا ترفع هذا الرأس تكبرا على خَلْق الله.

ويدخل في ذلك حفظ السمع والبصر واللسان مما حرم الواحد الديان: (وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا) [الْإِسْرَاءِ: 36]، وأن تحفظ البطن عن أكل الحرام وما اتصل به من القلب واليدين والفرج والرجلين؛ ففي صحيح البخاري أن رسول الله -ﷺ-قال: "مَنْ يَضْمَنْ لِي مَا بَيْنَ لَحْيَيْهِ وَمَا بَيْنَ رِجْلَيْهِ أَضْمَنْ لَهُ الْجَنَّةَ"، وكلما كان القلب مليئا بالحياء من الله بعثه حياؤه على حفظ رأسه وبطنه عما حرم الله -تعالى-، ثم ذكر -ﷺ- أمرين عظيمين فقال: "وَلْيَذْكُرِ الْمَوْتَ وَالْبِلَى، وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ تَرَكَ زِينَةَ الدُّنْيَا" فمن تذكر أنه سيموت ويبلى وسيقف بين يدي الله -جل وعلا- وأن الله سيحاسبه يوم القيامة على ما قدَّم في هذه الحياة الدنيا استحيا من الله حقَّ الحياء من أن يلقاه يوم القيامة بأعمال سيئة مشينة.

حضَر الموتُ أحدَ التابعين فأخذ يبكي بكاء شديدا، فلما عوتب في ذلك قال: "والله لو أُتِيتُ بالمغفرة من الله -عز وجل- لأهمَّني الحياءُ منه مما قد صنعتُ؛ إن الرجل ليكون بينه وبين آخر الذنب الصغير فيعفو عنه فلا يزال مستحييا منه".

أن يستحْيي المرء من خالقه أن يراه حيث نهاه، أو أن يفقده حيث أمره، أن يستحيي الإنسان من ربّه الَّذي خلقه فسوَّاه، ومن كلّ نعمةٍ أسبغ عليه وأعطاه، ولطريق الهدى وفَّقه وهداه.

(وَلِبَاسُ التَّقْوَى ذَلِكَ خَيْرٌ) [الأعراف:26]، وقال وهب -رحمه الله-: "الإيمان عريان ولباسه التقوى، وزينته الحياء، وماله العفة.

وإن تعجبْ فعجب من أُناسٍ يستحْيون من المخلوق، ولا يستحْيون من الخالق، يستحْيون من فعْل السوء وقولِه أمام النَّاس، وإذا غابوا عن أعيُن مَن يعرفون، أو كانوا في الخلوات، ظهر الفجور، وبدت المعاصي، وانكشف المغطَّى، وتعدَّوا حرمات الله، وانتهكوا حدود الله، وحالهم كما وصفهم الله: (يَسْتَخْفُونَ مِنَ النَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ اللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرْضَى مِنَ الْقَوْلِ ۚ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطًا) [النساء:108]، وفي الحديث: "اللهُ أحقُّ أن يُستحيا منه".

كان الإمام أحمد كثيرًا ما يردّد قول الشّاعر:

إِذَا مَا قَالَ لِي رَبِّي *** أَمَا اسْتَحْيَيْتَ تَعْصِينِي
وَتُخْفِي الذَّنْبَ مِنْ خَلْقِي *** وَبِالعِصْيَانِ تَأْتِينِي
فَمَا قَوْلِي لَهُ لَمَّا *** يُعَاتِبُنِي وَيُقْصِينِي

حينما يسودُ الحياء خُلقَ المجتمع، فإنَّه يزيد ترابط أهله، ويعزّز لُحمَتهم، ويقوّي أُلْفَتهم، ويسوقهم إلى ذُرا المجْد والكرامة، فيُوقَّر الكبير، ويحترَم أهلُ الفضل، وتُصان الحرمات، ويُترفَّع عن السفاسف والرَّذائل، فيزداد المجتمع بذلك أمنًا وأمانًا، وخيرًا وصلاحًا، وصَدَق الصَّادق المصدوق: "الحَياءُ كُلُّهُ خَيْرٌ" "الحَياءُ لا يَأْتي إلَّا بخَيْرٍ". متفق عليه

وحينما يغيب الحياء عن المجتمع، فكبِّر على الأخلاق بعده أربعًا، إذا انسلخ المرْء من حيائه، فليس له من إنسانيَّته إلاَّ اللَّحمُ والدَّم.

إذا ضعف الحياء، قلَّتِ المروءة، ورقَّ الدِّين، واضمحلَّت الرجولة، وخفَّت العفَّة.

فيوم نُزِع الحياء، رأيْنا من شبابِنا مَن يعاكس النساء، ويهتك حرمات الآخَرين، وإنَّ الله يغار، وغَيْرة الله أن تُنتهك محارمه.

يوم غاب الحياء، رأيْنا المرأة تُصافِح الرَّجُل وتُمازحُه، وتُضاحكه وتُجالسه.

يوم ضاع الحياء، رأيْنا الرَّجُل يلبس لِبسة المرْأة، والمرأة تلبَس لبسة الرَّجُل.

يوم مُزِّق الحياء، رأيْنا أشباه الرجال يرقُصُون رقْصَةَ الإناث، بلا حياء من خالقٍ، أو خجل من مخلوق.

ويوم فُقِد الحياء، أصبحت المجاهرة بالمعاصي مفخرةً يُتباهى بها، فهذا يفخر بعلاقاتِه مع الجنس الآخر، وآخَر يَتباهى بما يشاهده من أفلام ومناظرَ مشينة، وثالثٌ يتبجَّح بنزع حجاب بناتِه خارجَ بلاده.

ففي الصحيحين أن النبي -ﷺ- قال: "كُلُّ أُمَّتِي مُعَافًى إِلَّا الْمُجَاهِرِينَ، وَإِنَّ مِنَ المُجَاهَرَةِ أَنْ يَعْمَلَ الرَّجُلُ بِاللَّيْلِ عَمَلًا، ثُمَّ يُصْبِحَ وَقَدْ سَتَرَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ، فَيَقُولَ: يَا فُلاَنُ، عَمِلْتُ البَارِحَةَ كَذَا وَكَذَا، وَقَدْ بَاتَ يَسْتُرُهُ رَبُّهُ، وَيُصْبِحُ يَكْشِفُ سِتْرَ اللَّهِ عَنْهُ"

فَلا وَاللَّهِ مَا فِي العَيْشِ خَيْرٌ *** وَلا الدُّنْيَا إِذَا ذَهَبَ الحَيَاءُ

يَعِيشُ المَرْءُ مَا اسْتَحْيَا بِخَيْرٍ *** وَيَبْقَى العُودُ مَا بَقِيَ اللِّحَاءُ

إن من مظاهر نقص الحياء: انتشار الألفاظ النابية، والتصرفات المشينة، وتَشَبُّه الرجال بالنساء والنساء بالرجال، والكذب والتضليل، وعدم احترام مشاعر الآخرين وخاصة على وسائل التواصل الاجتماعي، التي يجب أن يُرَاعى فيها ما يُرَاعى في غيرها من التزام الآداب والأخلاق ومراعاة الأعراف.

قلَّة الحياء، نتيجتُها ونهايتها وقاحة وسفالة ورذالة وبذاءة، قليل الحياء لا يأْبَه بسفول قَدْره، ولا يأنف من لصوق فعْلةِ السوء على شخصه:

إِذَا رُزِقَ الفَتَى وَجْهًا وَقَاحًا *** تَقَلَّبَ فِي الأُمُورِ كَمَا يَشَاءُ

إنَّ الحديث عن خلُق الحياء ليتأكَّد في هذا العصْر، الَّذي تحارَب فيه الأمَّة في أخلاقها حربًا لا هوادةَ فيها، قنوات تصبِّح النَّاس وتمسيهم ببرامج ومشاهدَ تدمِّر الأخلاق، وتمزِّق الحياء، وتطبِّع الرَّذيلة، وتغرِّب المجتمع في سلوكه وأخلاقيَّاته، وطبعه وعاداته، ثمَّ لا تسَلْ بعد ذلك عن هُموم شبابِنا واهتِماماتهم، وثقافة أبنائِنا وسطحيَّة أفكارهم.

فواجب على أهْل الإيمان والغيرة، والرُّجولة والمروءة، أن يهذِّبوا أنفسهم بهذا الخُلُق النبيل، ويسْعَوا في تربية أولادِهِم -ذُكورِهم وإناثِهم- على هذا المعدْن الأصيل، مع تأْكيد المجتمع دائمًا

على ثقافة الحياء والاستِحْياء، والحرص على عدم نشْر السُّوء والفحْشاء، والتَّوفيق كلّ التَّوفيق من ربِّ الأرض والسَّماوات.

والحياءُ نَوعانِ:

❶ما كان خُلُقًا وجِبلَّةً غيرَ مُكتسَبٍ، وهو مِن أجَلِّ الأخلاقِ الَّتي يَمنَحُها اللهُ العبدَ ويَجبُلُه عليها؛ فإنَّه يَكُفُّ عن ارتكابِ القبائحِ، ودَناءةِ الأخلاقِ، ويحُثُّ على التَّحلِّي بمَكارمِ الأخلاقِ ومَعاليها.

❷والنَّوعُ الثَّاني: ما كان مُكتسَبًا مِن مَعرفةِ اللهِ، ومَعرفةِ عظَمتِه وقُربِه مِن عِبادِه، واطِّلاعِه عليهم، وعِلمِه بخائنةِ الأعيُنِ وما تُخفي الصُّدورُ؛ فهذا مِن أعلى خِصالِ الإيمانِ، بلْ هو مِن أعلى دَرَجاتِ الإحسانِ.

كيف نكتسب الحياء؟

❶تقوية الإيمان بالله تعالى، فكلما قوي إيمانك ازداد حياؤك.

❷ استشعار نِعَم الله تعالى الجليلة علينا، فمن شأن التفكر في تلك النعَم أن يولِّد حياء من الله عظيماً.

قال الجنيد –رحمه الله-: الحياء: رؤية الآلاء، ورؤية التّقصير فيتولّد بينهما حالة تسمّى: الحياء.

وقال ابن رجب–رحمه الله-: وقد يتولد الحياء مِن الله مِن مطالعة النِّعَم، فيستحيي العبدُ مِن الله أن يستعين بنعمته على معاصيه.

❸استشعار مراقبة أحدٍ من النَّاس ممن ترين فيهم الصلاح والتقوى عند فعل أي شيء يخدش الحياء أو يناقضه، كما قال –ﷺ-: "أُوصِيكَ أَنْ تَسْتَحِيَ مِنَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ كَمَا تَسْتَحِي مِنَ الرَّجُلِ الصَّالِحِ".

❹ اتخاذ القدوة الصالحة فيمن حقق خلق الحياء، ومصاحبة الخيّرات الحييات من النساء.

قال ابن القيم – رحمه الله –: ومن كلام بعض الحكماء: أحيوا الحياء بمجالسة من يستحيى منه، وعمارة القلب بالهيبة والحياء؛ فإذا ذهبا من القلب لم يبق فيه خير.

❍ويكفينا قدوتان: أحدهما من الرجال! والآخر من النساء:

القدوة الأولى: هو النبي محمد –ﷺ-، كما ذكرنا كَانَ النَّبِيُّ –ﷺ–أَشَدَّ حَيَاءً مِنَ العَذْرَاءِ فِي خِدْرِهَا ".

والقدوة الثانية: ابنة الرجل الصالح في " مَدْين "، قال تعالى – واصفاً مشيتها لما جاءت لموسى عليه السلام –: (فَجَاءَتْهُ إِحْدَاهُمَا تَمْشِي عَلَى اسْتِحْيَاءٍ قَالَتْ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا) [القصص: 25].

❺تذكر القبر واليوم الآخر والحشر والصراط، فإن المسلم إذا علم العبد أن راجعاً إلى الله يحاسبه على ما فعل في دنياه: منعه ذلك من اقتراف السيئات، ودفعه إلى تحقيق خلق الحياء من ربّهِ تعالى.

❻ التفكر في أسماء الله التي من معانيها مراقبة العبد ورؤيته له واطلاعه على أحواله، كأسمائه تعالى: الشهيد، والرقيب، والعليم، والبصير.

قال ابن القيم – رحمه الله –: العبد متى علِم أنَّ الرب تعالى ناظر إليه: أورثه هذا العلم حياءً منه يجذبه إلى احتمال أعباء الطاعة.

قال حاتم الأصم – رحمه الله –: تعاهد نفسك في ثلاث: إذا عملتَ: فاذكر نظر الله إليك، وإذا تكلمتَ: فاذكر سمع الله منك، وإذا سكتَّ: فاذكر علم الله فيك.

نحن نعيش في هذه الأيَّام تقلُّباتٍ مُناخيةً، وتغيُّرات معيشيَّة، من تتابع الأتْرِبة ودوامها، وقلَّة الأمطار، وغلاء الأسعار، وانتشار السَّرقات، والسَّطو علانيةً على الممتلكات، مع كثرة الهموم، وضيق الصدور، الَّتي تكدِّر على المرءِ عيشَه، وتنغِّص عليْه حياتَه.

إنَّ من ضَعف اليقين وغفْلة القلب أن ننظُر إلى هذه التقلُّبات المناخيَّة والتغيُّرات المعيشيَّة على أنَّها ظواهرُ مادية، لا علاقة لها بأعمال النَّاس وأفعالهم، وننسى أو نتناسى حقيقة قرْآنيَّة، وهي أنَّ هذه الظواهر ما أوجدها وأحْدثها إلاَّ ربُّها، وأنه سبحانه قد جعل لكلِّ شيءٍ سببًا، فما هذه البلايا المتعدِّدة، وما هذه المصائب المتجدِّدة، إلاَّ بعضٌ مما كسبت أيدينا؛ قال تعالى: (وَمَا أَصَابَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَن كَثِيرٍ) [الشورى:30]، وقال تعالى: (ظَهَرَ الفَسَادُ فِي البَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ) [الروم:41].

إن تحدَّثنا عن معاصينا ومنكراتِنا الَّتي فشَتْ فينا حتَّى نسيَتها النفوس ولَم تستوْحِشها، فلا ندري والله من أين نبدأ؟! هل نبدأ بالصلاة المكتوبة، الَّتي خفَّ ميزانها عند كثير من المسلمين –إلاَّ ما رحم ربي–؟! أم نتكلم عن الزَّكاة المفروضة، الَّتي كنزها البعض ولم يراعوا حقَّ الله فيها؟! أم نتحدث عن قطيعة الرَّحم وعقوق الوالدين، ونهش أعراض المسلمين؟! أم نتذكَّر تهافت النَّاس على المعاملات المحرَّمة، وتسابقهم لجمع المال من أي وجه كان؟! أم نستذكر مخطَّطات عباد الهوى على المرأة المسلمة، ومحاولاتهم المستديمة على إفسادها بشتَّى الوسائل؟! أم نتكلَّم عن مصيبتنا في برود أحاسيسنا، وقلة ناصحينا؟! أم طوفان المنكرات الهائل؟!

لقد كثرت ذنوبنا وتعدَّدت معاصينا وتكرَّرت، فلم ندر والله من أين نؤتى؟!

لَهَوْنَا لَعَمْرُ اللَّهِ حَتَّى تَكَاثَرَتْ *** ذُنُوبٌ عَلَى آثَارِهِنَّ ذُنُوبُ

استعيذوا بالله من قسْوة القلوب وموت الضَّمائر، الَّذين لا يتَّعظون بالمصائب والمثُلات؛ قال تعالى: (فَلَوْلاَ إِذْ جَاءَهُم بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا وَلَكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ) [الأنعام:43].

فالله اللهَ في إصلاح الحال، والمسارعة في تغيير الفعال، والثَّباتَ الثَّبات على الطَّاعة ولزوم الاستقامة، فلا ندري متى تأتينا منيّتنا؟! (وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَداً وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ) [لقمان:34].

قال عمر رضي الله عنه: (مَن قل حياؤه قل ورعُه، ومن قل ورعه مات قلبه).

قال الشاعر:

إذا لم تخشَ عاقبةَ الليالي ولم تستَحْيِ فاصنع ما تشاءُ
فلا واللهِ ما في العيش خيرٌ ولا الدنيا إذا ذهَب الحياءُ
يعيشُ المرء ما استحيا بخيرٍ ويبقى العُودُ ما بقي اللحاءُ

إن الحياء دليل على رجاحة العقل، وهو أدب في التعامل مع الخلق، وطريق خير وصلاح، وسعادة وفلَاح في الدنيا والآخرة، الحياء شعار المتقين، ودثار الصالحين وجلباب ستر الله على عباده المؤمنين، ولكن إذا أصر العبد على الذنوب والمعاصي ولم يسلك طريق التوبة نزع منه الحياء ومن نزع حياؤه حل هلاكه فتمادى في تحصيل شهواته، وظهرت مساوئه ودُفنت محاسنه وكان عند الله مهانا.

قال ابن القيم –رحمه الله–: "الحياء مشتَقّ من الحياة؛ فمن لا حياء له فهو ميت في الدنيا، شقيّ في الآخرة، فبين الذنوب وقلة الحياء وعدم الغيرة تلازم، فكل منها يستدعي الآخَر ويطلبه، ومن استحيا من الله عند معصيته استحيا الله من عقوبته يوم يلقاه، ومن لم يستحي من الله –تعالى– ومن معصيته لم يستحي الله من عقوبته.

إن الذي يحرك في القلب الحياء من الله –جل جلاله– أمور ثلاثة: تعظيم الله وحبه والعلم برؤيته واطلاعه، فمتى كان القلب معظِّمًا لربه محبًّا له –سبحانه– عَالِمًا باطلاعه ورؤيته وأنه لا تَخْفَى عليه خافيةٌ تحرَّك القلبُ حياءً من الله –جل جلاله.

اللهم اهدنا لأحسن الأخلاق فإنه لا يهدي لأحسنها إلا أنت، واصرف عنا سيئها إلا أنت، اللهم إنا نسألك الهدى والتقى والعفاف والغنى برحمتك يا أرحم الراحمين.

المراجع:

الحياء كله خير: إبراهيم بن صالح العجلان.

❷ خلق الحياء: ماهر بن حمد المعيقلي.